خطبة صلاة الجمعة 06/9/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(يسارعون في الخيرات)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِه الله فهو المهتَد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾, [البقرة: 148].

وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾, [المائدة: 48].

روى الإمام مالك في الموطأ: بلغه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يَدعو: **((اللَّهمَّ إني أَسألك فعلَ الخيراتِ ، وترك المنكراتِ ، وحُبَّ المساكين ، وإذا أردت بقومٍ فِتنَة فَاقبِضْني إليك غير مفتون»**, [رواه الترمذي].

عنوان خطبة اليوم:

(يسارعون في الخيرات)

أيها الإخوة:

لفتني في سورة الأنبياء أنها تكلمت عن خمسة عشر نبي, وتضمنت الحديث بإيجاز عن جهادهم مع أقوامهم الوثنيين، وعرضت لشيء مما تعرضوا له من أهوال وشدائد صبروا عليها وصمدوا أمامها, راجين نشرَ الخير في الأرض, وعميمَ الأجر في السماء.

واستوقفني في السورة أنها أنهت الحديث عن الأنبياء خيرة البشر في الآية التسعين منها بوصفهم -يسارعون في الخيرات -: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ * وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾, [الأنبياء: 87-90].

- فلماذا قال الله تعالى: ﴿يسارعون﴾؟ ولم يقل: "يسرعون"؟
- ولماذا جاء اللفظ القرأني: ﴿في الخيرات﴾؟ ولم يأت "إلى الخيرات"؟
- ولماذا قال: ﴿الخيرات﴾؟ ولم يقل: "الخير"؟

هذه الثلاث النقاط مادة خطبة اليوم: **"يسارعون في الخيرات"**، ولها مالها من الأهمية في الأزمة التي نعيش, والتي نسأل الله تعالى تعجيل كشفها بلطفه.

النقطة الأولى: لماذا قال الله تعالى في وصف أنبيائه ورسله الذين يتعرضون لما يتعرضون له من الإساءة والشرور من أهل الباطل والضلال ومن الظلمة الفجار، لماذا قال: ﴿يسارعون في الخيرات﴾؟ ولم يقل: "يسرعون في الخيرات"؟

وما مبرر الإسراع أصلاً في عمل الخير, وفي الأرض مافي الأرض من شرور, وفيها ما فيها من هموم ومصائب وشواغل؟

الجواب: يقول أهل اللغة: إن زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى، يسرعون ستة أحرف, ويسارعون سبعة، والمعنى في يسارعون: يسرعون إسراعاً كبيراً، تطير هممهم وتخف أجسامهم لفعل الخير وبذره وبذله، وفي هذا تعليم لكل مؤمن أن يطير للخير, ويحدو ركابه مسرعاً نحوه.

ثم إن المسارعة على وزن المفاعلة، والمفاعلة تعني المشاركة فكأنهم يتسابقون في المسارعة ويتشاركون فيها.

أما لماذا هذه السرعة؟ فوجدتها لأربعة أمور:

أولها: لأن الخير في الأرض سيبقى, ولأن النور في الأرض سيسطع، فما لم تكن أنت حاملاً للخير باذلاً له فسيسبقك إليه غيرك، وسيحمله سواك، فكن أنت السابق لتفوز باللحوق بركب الخيرات.

وثانيها: لأن المؤمن يعلم أن حياته على الأرض قصيرة, فتراه يسارع للخير ليجمع أكبر قدر منه قبل الرحيل.

وثالثها: لأن الإسلام علمنا المبادرة للخير ودعانا إلى الإسراع إليه مراراً، قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾, [البقرة: 148], وقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾, [آل عمران: 133].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«بادِرُوا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فَقْراً مُنْسياً، أو غِنىً مُطغياً، أو مَرَضاً مُفسِداً، أو هَرَماً مُفنِداً، أو موتاً مُجْهِزاً، والدجالَ؟ والدَّجَّالُ شَرُّ غائب يُنتظَرُ، والساعةَ؟ والساعةُ أدْهَى وأمرُّ، ثم قال: إلا وأكثروا من ذكر هادم اللذات»**, [أخرجه الترمذي].

وقال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: **«بادروا بالأعمال ستاً: طلوعَ الشمس من مغربها، أو الدخانَ، أو الدجالَ، أو الدابةَ، أو خاصَّةَ أحدكم، أو أمرَ العامة»**, [أخرجه مسلم].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بادروا بالأعمال فِتناً كَقِطَعِ الليْلِ المظلم، يُصبحُ الرجلُ مؤمِناً ويُمْسِي كافِراً، ويُمسِي مُؤمِناً ويُصبْحُ كافِراً، يَبيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ من الدُّنْيا**», [أخرجه مسلم والترمذي].

ورابعها: لأن أهل الشر يعملون ويسرعون فوجب على أهل الخير أن يعملوا ويسارعوا، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾, [هود: 121، 122].

فلئن كان أهل الخيرات يسارعون في الخيرات, فإني قرأت في القرآن أن أهل الضلال يسارعون في الظلم والضلال والفجور:

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾, [آل عمران: 176].

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾, [المائدة: 62].

أيها الإخوة:

إن الأزمة التي تمر بها البلاد كشفت معادن الناس زَيفَها وجيدها، ومازت الرجال خبيثها وطيبها، وأظهرت الأعمال صالحها ورديئها، فرأيت أقواماً هبطوا بالإجرام دَرَكَات، ورأيت أناساً علوا بفعل الخير درجات، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

رسم رسام من شباب هذه البلدة رجلاً معروفاً، وعرض الصورة على صفحته في موقع التواصل الاجتماعي, فشاركه أصدقاؤه الثناء والاطراء على اللوحة، غير أن واحداً منهم كتب معلقاً على الشخص المرسوم بقوله: "رجل الخير".

ووُضعت لوحة فيها شخصية معروفة على أحد المواقع الالكترونية, وطُلب من الداخلين كتابة تعليق، فكتب أحد الزائرين قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾, [الأنعام: 21].

لاريب –أيها الأخ– أنك ستُرسم يوماً ما، إن لم يكن في الأوراق ففي الأذهان، فماذا سَيُقَال فيك؟ وماذا سَيُكتَب تحت صورتك؟ فقدّم لنفسك الخير من الآن, وسارع فيه وله .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « **مُرَّ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم بجنازة، فأثْنَوْا عليها خيراً، فقال: وَجَبَتْ، ثم مُرَّ بأخرى فَأثْنَوْا عليها شراً، فقال: وجبت، فقيل: يا رسول الله، قلت لهذا: وجبت؟ ولهذا: وجبت؟ قال: شهادةُ القوم، المؤمنون شهداءُ الله في الأرض**», [رواه البخاري ومسلم].

وفي رواية: «**من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتُم عليه شرّاً وجبت له النار، أنتم شهداءُ الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض**».

والنتيجة أن الله تعالى قال في وصف أنبيائه –خيرةِ البشر–: ﴿يسارعون﴾, ولم يقل: "يسرعون", لأنهم كانوا شديدي الاقبال على عمل الخير, سريعي النفرةِ إليه, يتنافسون فيه ويتسابقون إليه، وهذه النقطة الأولى.

وأما النقطة الثانية: فلماذا قال الله: ﴿يسارعون في الخيرات﴾؟ ولم يقل: "يسارعون إلى الخيرات"؟ أسرع إلى الشيء إذا كان خارجه واستعجل الوصول إليه، أما أسرع في الشيء إذا كان داخله وتعجل المضي فيه.

فالصالحون من البشر هم في الخير أولاً ووسطاً وآخراً، ولكنهم مع ذلك يتبادرونه ويتسابقون فيه ويتنافسون, يحيط بهم الخير ويجتمعون حوله، إن نالوه سعدوا وإن فاتهم حزنوا.

أخرج رزين في جامع الأصول عن زيد الخير رضي الله عنه: قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله! لَتُخْبِرَنِّي: ما علامة الله فيمن يريد، وما علامته فيمن لا يريد؟ قال لي: ((**كيف أصبحتَ يا زيد؟**)), قلتُ: أصبحتُ أحبُّ الخيرَ وأهله، إن قدرتُ عليه بَادَرْتُ إليه، وإن فَاتَني حَزِنْتُ عليه، وَحَنَنْتُ إليه، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((**فتلك علامة الله فيمن يريد, ولو أرادكَ لغيرها لَهَيَّأَكَ لها**».

وأما النقطة الثالثة الأخيرة: فلماذا جاءت الآية: ﴿يسارعون في الخيرات﴾؟ ولم تقل: "يسارعون في الخير"؟

فلا يخفى على أحد الجمع المُصَرّح به في قوله الخيرات، في دلالة واضحة أنهم يتفننون في الخيرات أشكالاً وألواناً، ويتنافسون فيها أعداداً وأنواعاً.

ففي هذه الأزمة رأيت إخوة يسارعون في الخيرات: فحيناً يبحثون عن المريض لمساعدته في نفقات العلاج والاستشفاء، وحيناً يبذلون المال ثمناً لطعام من لا طعام عنده, وكساء من لا كساء عنده، وحيناً يساعدون الطلاب في دراستهم بدروس خصوصية, مأجورة حيناً ومن دون أجرة أحياناً.

ورأيت من يساعد في الدعم النفسي للأطفال والنساء، ومن يعين في إخراج المسجونين ظلماً، ومن يواسي المفجوعين والمصابين بالكلمة الطيبة إذ لم يسعفه المال، ومن يساعد الناس بعدم المغالاة في الأسعار، ومن يعينهم بالإيواء بأجرة معتدلة وربما من دونها.

ومن الصيادلة من يحرص على بيع أقل كمية من الدواء للمريض ليوفر الباقي لمريض آخر، ومن الأطباء من لم يرض بالسفر ليقف إلى جانب المرضى المحتاجين له داخل البلد، ومن الذين سافروا من يفكرون بدعم الذين بقوا مادياً ومعنوياً ...

وهكذا يتفنن أهل الخير في الخيرات, على حين تجد أهل الشر يتفننون في الضلالات: سرقة ونهباً، تدميراً وقتلاً، جوراً وبطشاً، ظلماً وقهراً.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾, [السجدة: 18 - 20].

أيها الإخوة:

هذه نقاط الخطبة الثلاث "يسارعون في الخيرات"، واعلموا يقيناً أن الخير لا يبلى, وأن الذنب لا ينسى, وأن الديان لا يموت، اعمل ماشئت فكما تدين تدان.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**على كُلِّ مسلمٍ صبدقةٌ**»، قيل: أرأيت إنْ لم يَجِدْ؟ قال: «**يَعْملُ بِيَديْه ، فينفعُ نفسَهُ ويتصدَّقُ**» قال: أرأيتَ إنْ لم يستَطِعْ؟ قال: «**يُعينُ ذا الحاجة الملْهُوفَ**»، قال: قيل له: أرأيتَ إن لم يستطع؟ قال: «**يأمُرُ بالمعروف، أو الخير**»، قال: أرأيت إنْ لم يفْعَل؟ قال: «**يُمسِكُ عن الشَّرِّ، فإنَّها صدقة**».

والحمد لله رب العالمين